معركة حلب تحت المجهر

الكاتب : عبد المنعم زين الدين

التاريخ : ١٥ نوفمبر ٢٠١٦ م

المشاهدات : 1290

انطلقت المعركة بعد طول انتظار، بمشاركة جيش الفتح وعدد من فصائل الجيش الحر، كجيش المجاهدين، وبمعنويات عالية انطلق شبابنا في جولة تاريخية مع روسيا والمليشيات الطائفية التي تحاصر أهلنا في حلب، بغية كسر الحصار، وتحرير المدينة من رجسهم.

كان من الواضح أن حجم الاستعدادات والتجهيزات العسكرية قد بلغ درجة ممتازة، قياساً بالمعارك الأخرى وإمكانات الفصائل، وتم الزج بكثافة، بكل أنواع السلاح الثقيل، من دبابات وعربات ورشاشات وصواريخ.

وما هي إلا ساعات حتى تمكن الثوار من تحرير مساحات هامة، وأماكن استراتيجية (الضاحية، منيان، المناشر، معمل الكرتون، وغيرها)، وطرقوا مساكن الـ٣٠٠ شقة، ومساكن حلب الجديدة.

في مكان آخر، وعلى جبهة أخرى كانت فصائل أخرى من غرفة عمليات فتح حلب وجيش إدلب الحر، تحاول السيطرة على مدفعية الزهراء، لتحقق تقدماً محدوداً في "الفاميلي" ما لبثت أن تراجعت عنه بعد فشلها في إكمال السيطرة على منطقتي "مزارع الأوبري" و"بيوت مهنا" اللتين تعتبران شرطا لاستمرار تثبيت الثوار في "الفاميلي"، فيما كانت فصائل حلب المدينة؛ تتجهز للقيام بدورها في مرحلة لاحقة، تستلزم نجاح الثوار خارج المدينة في السيطرة على منطقة الـ"٣٠٠ شقة"، والتي لم يتمكنوا من السيطرة عليها، مما أعطى النظام فرصة استعادة لملمة صفوفه، والزج بمؤازرات كثيفة استقدمها من جبهات أخرى، مستفيداً من كثافة الطيران.

شكّل تأخر الثوار في متابعة التقدم، فرصة سانحة للمليشيات الإيرانية وقوات النظام، لأخذ زمام المبادرة، ومهاجمة الثوار من الخاصرة، في منطقة "١٠٧٠ شقة"، بعد أن نجحوا في السيطرة على تلة مؤتة، مما فرض واقعاً جديداً على سير المعارك، لم يكن في صالح الثوار.

استثمر العدو هذا التراجع الحاصل عند الفصائل، ليكثف من هجماته على منطقتي ضاحية الأسد ومنيان، متبعاً في سبيل ذلك سياسة الأرض المحروقة، لينجح الثوار في صدّ هجمات عدة، ويكبدونه خسائر فادحة، في الأرواح والعتاد، قبل أن يتمكن من التقدم على منطقة منيان، مما أضعف منطقة الضاحية ليكمل بالسيطرة عليها، بعد أن وثّق ناشطون في يوم واحد قرابة ٤٠٠ غارة من الطيران الحربي على جبهتي الضاحية ومنيان.

كان الخبر صادماً لكثير من المتابعين لسير المعركة، والذين كانوا ينتظرون أن تكمل مسيرتها لفك الحصار والتحرير، مؤملين أنفسهم بالوعود التي أطلقها قادة الفصائل والشرعيون المرافقون للثوار، فيما عمّت الفرحة مناطق "الشبيحة"، وراحوا يطلقون النار في الهواء بغزارة، كي يغيظوا أهالي حلب المحاصرين، الذين راحوا يتساءلون عن مصير المعركة، وإلى أين ستسير بعد هذه التطورات.

في ذات السياق، راح بعض المغرّدين يسهب في انتقاد قادة الفصائل، ومطلقي التصريحات، ومَن كان وراء تسمية المعركة بالملحمة الكبرى، ويرون أن الزخم الإعلامي الذي رافق المعركة كان في غير محله، وتسبب في إحباط الناس، وأنه كان على القادة ألا يبالغوا في الوعود والتصريحات، فيما تركّز انتقاد الكثيرين منهم على توقف المعركة، عقب السيطرة على الضاحية ومنيان، وهو الخطأ الذي يرون أنه قد تكرر في معركة الكليّات، حيث أعطى ذلك فرصة للنظام كي يستجمع قواه، ويستوعب الصدمة، ويستعيد زمام المبادرة. وعزا بعضهم هذا التوقف إلى ضعف الخبرة العسكرية نتيجة عدم الاستعانة بالضباط، فيما عزاه آخرون إلى خطوط حمراء وأوامر تتلقاها الفصائل من الداعم لتتوقف عن متابعة التقدم.

اللافت أن المنتقدين قد جهزوا أنفسهم لكل الاحتمالات. فلو أن الثوار انتصروا في هذه المعركة لأرجعوا ذلك إلى اتفاقات دولية، بين بعض الدول، لتسليم حلب للمعارضة، كما راحت بعض الصحف تعزف على هذا الوتر، ولو أن الثوار لم يفتحوا معركة حلب، لقالوا: إن حلب قد تم بيعها، وأن خطوط الداعمين الحمراء هي التي حالت دون المعركة، على الرغم من أن الثوار قاموا بها تحت خطوط حمراء دولية، كان منها ما صرّح به "بان كي مون" من قلق على استهداف المدنيين، وماصرّحت به "منظمة العفو الدولية" مؤخراً حيث طالبت الثوار بوقف المعركة؛ لأنها تتسبب بإصابات بين المدنيين، فيما تجاهل هؤلاء الحصار المفروض على أهلنا في حلب، وما قام به "النظام المجرم وروسيا وإيران" من قصف للمشافي ومراكز الدفاع المدني، ومنع الغذاء والدواء عن المناطق المحاصرة.

وللتعليق على هذه الانتقادات أقول:

من خلال تواجدي بين الثوار وقريباً من غرف العمليات وعلاقتي بقادة الفصائل، أرى أن اتهام الفصائل باستبعاد الضباط وإقصائهم عن المعركة؛ أمرٌ غير صحيح، فغرفة العمليات حافلة بالضباط، وهم يخططون للعمل، ويأتي دور قادة الفصائل استشاريا.

أما عن توقف الفصائل عقب تحرير منطقة ما، والتأخر في متابعة المراحل، فهو أمرٌ لطالما نقلناه لهم، لكن علينا أن نقدّر جيداً مدى قدرتهم على المتابعة، فهم ليسوا جيشاً نظامياً بأعداد غير منتهية، كما أن ما يعدّونه لكل مرحلة يحتاج تجهيزاً خاصاً، إضافة إلى الخسائر التي تقع بين صفوفهم.

لذا فالسؤال: هل كانوا يستطيعون التقدم ومع ذلك توقفوا؟ أم أنهم حقاً لم يكونوا على جاهزية لمتابعة التقدم مباشرة، وهو الأرجح؟ فالنظام نفسه ورغم كل الدعم الروسي والإيراني غير المحدود؛ لا يستطيع متابعة التقدم.

وأما عن التصريحات التي يطلقها القادة في بداية كل معركة مماثلة، وعن الوعود بالنصر وكسر الحصار والتحرير، وعن الزخم الإعلامي المرافق للمعركة، فأرى أنه أمرٌ طبيعي ولا يشكل نقطة سلبية عند الفصائل، ذلك أن المعركة في جزء كبير منها تعتمد على شحذ الهمم عاطفياً لزج الثوار بقوة في معركة كسر الحصار، وهذا يتطلب رفع الروح المعنوية لهم، كما أن العدو يترقب هذه التصريحات ومن غير المنطقي أن تقول إننا نقوم بمعركة صغيرة

لأخذ منطقة والاكتفاء بها، ناهيك عن أن هدف المعركة واضح منذ البداية، والطريق إلى كسر الحصار ليس باللغز.

السؤال الآن: هل أخطأ الإعلاميون بتسمية هذه المعركة بـ"ملحمة حلب الكبرى"؟

الذي أراه أنها أضخم معركة شهدتها جبهات حلب من حيث العتاد والعدد وحجم المشاركة، وعدد الفصائل المشاركة، بل وحتى من حيث الإنجاز النوعي الذي تمخض عنها بتحرير مناطق كان الثوار قد شنوا عليها كثيراً من المعارك خلال السنوات السابقة ولم يحرزوا فيها أيَّ تقدم، كما أنها المعركة الأقرب لتحرير المدينة حيث تتطلب محاور كسر الحصار تحرير أجزاء هامة من حلب (حلب الجديدة، ٣٠٠٠ شقة، الحمدانية) وهي مناطق إن تحررت فإن الطوق يكون قد كُسر، وصار قلب المدينة تحت سيطرة الثوار فعليا، حيث لا وجود لقوات النظام وتحصيناته داخلها، فيما ستكون المليشيات المنسحبة مشغولة بالهرب نظراً لفقد اتصالها بالقادة، وعدم إمكانية إحداث خطوط دفاع سريعة بين المدنيين.

لذا فإنني لا أعتب عليهم في هذه التسمية، بل إنها، ونظراً لإمكانيات الثوار المحدودة، في مقابل المشاركة الكثيفة لمليشيات إيران وحزب اللّه والنجباء وغيرهم على الأرض، والمشاركة المكثفة للطيران الروسي في الجوّ، مع هدوء الجبهات الأخرى، فإنها تستحق أن تسمى "ملحمة سوريا الكبرى"، بغض النظر عما آلت إليه من نتائج.

وإن المنصِف يدرك أن ما يتم إطلاقه من تصريحات وأهداف للمعركة، ليس بالضرورة أن يتحقق، فنتائج المعارك – عادة – ليست مضمونة، حتى ولو قامت بها دول كبرى، وكلنا يذكر أن النظام وروسيا قد أعلنوا منذ أشهر أنهم بدأوا معركة تحرير حلب الشرقية، ثم لم يتمكنوا من السيطرة إلا على أجزاء صغيرة قبل أن تتوقف معركتهم وتبدأ ما تسمى بـ"الهدنة".

ولقائل أن يقول: إذاً لماذا قمتم بهذه المعركة إذا كانت النتائج غير مضمونة، وإذا كانت قوتكم العسكرية لا تعادل قوة خصمكم؟ لماذا ضحيتم بالشهداء؟ ولماذا وعدتم الناس وتسببتم في إحباطهم؟

أقول: إن هذه المعركة لم تكن ثانوية، ولم تكن من نافلة المعارك، ولم يقم بها الثوار لأنهم يعيشون حالة ترف ويحتاجون لفتح أي معركة، إنما هذه المعركة كانت ضرورية وواجبة، ولا يملك الثوار الشرفاء إلا خيار القيام بها، ذلك أن المعركة في هدفها الأساس كسر الحصار عن أكثر من ٣٠٠ ألف محاصر في المدينة، يهددهم النظام باجتياح مدينتهم والتنكيل بهم، ويطلب منهم الاستسلام، ويمنع عنهم الطعام والدواء، وكل وسائل العيش، فلا يمكن والحال كذلك أن نفكر بمعركة أخرى، ونتركهم لمصيرهم، وأما ما طرحه البعض عن فتح معارك في حماة وغيرها بغية جرّ النظام لترك حلب، فهو أمرٌ غير واقعي – في رأيي – وغير مفيد، فجبهات حلب ثابتة منذ سنوات دون الحاجة إلى استقدام مؤازرات، وللنظام فيها ما يكفي لإكمال الحصار حتى ولو لم يستقدم مؤازرات من مدنٍ أخرى، كما أن المعارك في تلك المدن، قد تستغرق أشهراً قبل أن تحقق نتائج ملموسة، وقد لا تكون الثمرة منها قوية إذا نجح النظام في اجتياح حلب خلال سحب الثوار قوتهم إلى محافظات أخرى، أو تقدم باتجاه الريف الجنوبي، وهدّد خزان الثوار وطرق إمدادهم في إدلب.

على الرغم من أننا قدّمنا عشرات الشهداء في هذه المعركة، إلا أن العدو تكبد خسائر زادت عن ١٠٠٠ قتيل، كثير منهم من حزب اللّه ومليشيات إيرانية وعراقية. وقد اعترف حزب اللّه وإيران بعدد منهم، كما أن العدو اعترف بقوة الثوار التي فاجأته رغم علمه المسبق بالمعركة، مما يعني أن الفرصة لا تزال سانحة أمام الثوار – ورغم التراجع

الذي حصل – أن يعيدوا الكرّة، من هذا المحور أو من غيره، ويحققوا تقدماً ونصراً على العدو، خاصة بعد أن أدرك العدو أن الثوار إذا أرادوا منطقة ووضعوا فيها ثقلهم فإنهم يأخذونها رغم كل ما يتم أخذه من تدابير من قِبله.

لا شك أن الحالة المعنوية للأعداء الذين يتمركزون في المناطق التي تم استعادتها، هي حالة تعبٍ وانهزام، فهم بلا شك يعاينون آثار هزيمة من كان قبلهم، وجثث من تمّ سحلهم من رفاقهم، ويعاينون كيف كانت تلك المباني شاهداً على هربهم وهزيمتهم، وبالتالي لن تكون لديهم تلك القوة التي كانوا يتفاخرون بها حين نجحوا في التمسك بهذه الحصون منذ بداية الثورة، وبالتالي فإن فرص النجاح في المعارك القادمة أكبر لصالح الثوار.

ولا ننسى أن هزيمتهم تحققت رغم كل مؤازرة الطيران الروسي، الذي زعم أنه كان في هدنة تجاه حلب، وهذا كذب وتضليل مارسه الإعلام الروسي خلال المعركة، وانساق معه بعض المحللين السياسيين عن جهل بالميدان، فالغارات الروسية توقفت فقط عن أحياء حلب المحاصرة، حيث لا معارك هجومية. أما في المناطق التي شهدت المعارك في غربي حلب، (الضاحية، منيان، الراشدين، كفرناها، المنصور) ومناطق طرق إمداد الثوار في ريف حلب الغربي (خان العسل، دارة عزة، الأتارب، ترمانين، إبين، الجينة، كفرحلب، المهندسين) مع إدلب وريفها، فالطيران لم يتوقف ولا ساعة من ليل أو نهار، بل واستخدم كل أنواع الأسلحة المحرمة (كلور، فوسفور أبيض، عنقودي)..

ماذا عن المرحلة القادمة؟

بلا شك الثوار الآن يرتبون أوراقهم، وقد وضعوا في حسبانهم قبل المعركة خططاً بديلة، لا يمكن البوح بها، وعليه فإننا نتوجه إلى أهلنا في حلب لنطلب منهم مزيداً من التحلي بالصبر، خاصة أن فرصاً أخرى باتت قابلة لكسر الحصار عنهم، من المحاور الشرقية، بعد تقدم الثوار نحو مدينة الباب، وألا يستمعوا لإعلام النظام الذي يهدد ويتوعد بما لا قدرة له على القيام به.

ونتوجه إلى ثوارنا داخل حلب لنطلب منهم مزيداً من الاستعداد للمراحل القادمة، كما نتوجه إلى ثوارنا الذين خاضوا هذه المعركة لنقبّل جباههم ونقول لهم: اثبتوا وتابعوا فإن اللّه ناصركم، وإن التاريخ قد سجل أسماءكم بحروف من ذهب، كرجال عظماء يرخصون الأرواح ليكسروا الحصار عن أهلهم، ضد عدو مرتزق نذل يقدّم الفطائس ليزيد من حصار أهلنا المدنيين.

ويبقى أن ننوّه إلى أن الفصائل مدعوّة إلى تحييد الخلافات فيما بينها، خاصة خلال المعارك، والتي تؤثّر على معنويات العناصر والقادة، ويستفيد منها العدو، (كما حصل في حلب المدينة)، وأن يعلموا أن اللّه قد يحرمنا النصر بسبب هذه النزاعات.

كما أن الجبهات النائمة (خاصة في الجنوب) تتحمل مسؤولية في جعل (النظام وروسيا وإيران) يستفردون بضرب الثوار في حلب، دون أن يقوموا بما عليهم من واجب تشتيت للطيران، وإضعافٍ لقوات العدو. وكان من المفترض أن تشتعل كل الجبهات مؤازرة لحلب، خاصة أن المعركة لم تكن سِراً وكان التجهيز لها معلناً، بما يتيح الفرصة لتلك الجبهات للاستعداد لمعارك متزامنة تخفف عن الثوار في حلب.

نور سورية

المصادر: